القصص

من أقاصيص الجاهلية

٣ـ حرب البسوس

بقلم اليوزباشى أحمد الطاهر

تتمـــــة

كان للناس عجباً أن اعتزل الحرب الحرثُ بن عباد والفند الزمانى ، وامتزج العجب بالحسرة حين انحازت اليهما عشائرها . ولـكنهما والعشائر قوم جنحوا للسلم ، وأرادوا أن يأخذوا الأمور بالرفق والحلم ، وعز عليهم أن تطير بالقوم عنقاء ، وأن تراق هذه الدماء ، فى مقتل ناقة عجفاء

جلس الحرث بن عباد يوماً على شرف من الأرض واجتمع الناس حوله يقصون عليه من أنباء القتال ما أمضه وزاد فى حسرته . واندفع الحرث فى اللوم والتثريب : يعيب على بكر ما فعل فتاها من قتل كليب بناب من الابل وما جرت فعلته النكراء من كرب وبلاء . قال له الفند الزمانى : « إنك يا حرث قد أسرفت فى اللوم والتثريب ، أما ترثى لهذا الشيخ مرة بن ذهل وقد توالت عليه المصائب وتزاحمت عليه النوائب ، وكانت أخراها قتلة ابنه همام الذى ضن به يوم عرض الفدية . وأنت تعلم مكان همام من قومه وعشيرته ! لشد ما يحزنني قتل هذا الفتى . لشد ما يحزنني قعودنا عن نصرة بكر وقد أسرف المهلهل فى النكال . وهالني ما يتندر به القوم علينا فى مجالسهم ومجامعهم : قال قوم : إننا جبناء ، وقال آخرون : إننا ضعفاء الرأى قليلو الحيلة ، وقال آخرون إننا أذلاء نتملق تغلب ونصطنع عندهم يداً بقعودنا عن مناجزتهم . وحسبنا بها فرية تحط من كرامتنا وتضع من عزتنا . فهل أنت على رأيك مقيم ؟ »

قال الحرث : « أما مرة بن ذهل فلقد والله عز على مصابه فى ولده وما يحز قلبي إلا مرآه مضرجاً بدمه وموقف المهلهل منه بظهر الأسى ويخفى الشماتة . ولـكنك تعلم أن من دخل الحرب لم يأمن عواديها ، وأن من نصب نفسه للقتال فقد استهدف للموت . وإن فى ضن الرجل بفتاه يوم الفداء وبذله يقتل بسيف الأعداء شرفاً لا يطاوله شرف وفخاراً لا يتسامى اليه فخار ، ولا أحب إلىّ من أن يقتل بُجير ولدى إن كان فى قتله صلاح بين ابنى وائل وفى دمه وفاء لدم كليب . وأما مقالة السوء التى تتناولنا بها ألسنة بذيئة فما أحفل بها ولا أقيم لها وزناً . . . . . »

وفيما هو يتحدث إذ قدم رجل قد أطلق ساقيه للريح يلهث من فرط التعب ولا يكاد يبين : قال الملأ « مابال هذا الرسول يعدو كأنما يسابق الريح ؟ » « والله ما نحسبه إلا أتى ينعى لنا المهلهل ! » وانكب النذير على الحرث بن عباد واحتضنه بين ذراعيه وقال :

ـ « عزاء يا أبا بجير ! عزاءً ! »

قالوا : « يالهول المصاب ! ما وراءك يا غراب البين ؟ »

ـ « عزاء يا حرث ! لقد والله كان أشجع من شهدته الحرب : أفتقعد عن حربهم بعد هذا ؟ »

ـ « قل يا رجل من الذى مات ؟ »

ـ « بجير ولدك ! »

ـ « وكيف مات ! »

ـ « بل قتل . قتله المهلهل بن ربيعة . أفتقعد عن حربهم بعد هذا ؟ »

ـ « مالك والمسألة عن هذا ! أما بجير فنعم القتيل أصلح بين بكر وتغلب

وما أحسب المهلهل إلا قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤاً له »

قال الناعى : « لا . لقد غابت عنك أشياء . أما علمت أن

المهلهل عند ما طعن بجيراً قال له : (بؤبشسع نعل كليب) ؟ »

قال الحرث : « أقالها والله ؟ »

ـ « نعم ولقد تجاوبها الحى من أقصاه إلى أقصاه »

قال الفند الزمانى : « يا للمذلة ! ويا للعار ! »

قال الناعى : « وارحمتاه لهمام زين الشباب ! »

قال الحرث : « دعا هاما وقتل زين الشباب . لقد أسرف المهلهل وجاوز الحد . وما عرف لهذا الفتى الذى لم يخط العشرين حرمته وهو ابن أخته . ولم يعرف لى سابقتى وقد كففت عن حربه :

قربا مربط النعـــامة منى لقحت حرب وائل عن حيالى

لم أكن من جناتها علم اللـــه وإنى بحرها اليوم صالى

فأحضر له غلامه النعامة وهى فرس له ، فركبها وخرج يدعو العشائر للقتال فلبته بشكر ، وعجل ، وبنو حنيفة ، وبنو قيس بن ثعلبة ، وسادتهم ، وسار فى القوم الفند الزمانى وكان يقوم بألف رجل ، وترأس القوم الحرث بن همام البكرى

* * *

ولما اجتمع القوم وقف الحرث بن عباد خطيباً فاعتذر لهم عن نفسه وعن الفند الزمانى فيما كان منهما من إحجام عن خوض هذه اللجة التى طفت على القوم فأصبحوا فيها مغرقين وقال إنه والفنـد قد استمسكا بالصبر والأناة حتى لم يعد فى قوس الصبر منزع ، والمهلهل قد أسرف فى سفك الدماء وجاوز حد الفداء ، ولم يحتسب لنا قعودنا عن حربه وقد ناصبه قومنا العداء ، وها هو ذا قد قتـل بجيراً ولدى وإنى لأشهدكم ـ علم الله ـ على أننى حين بلغت مقتل بجير طابت نفسى واطمأنت ظناً بأن المهلهل سيجد فى ثقله غناء عن الحرب وكفاء للفدية ، ولـكننى أسرفت فى الظن الجميل ، وأسرف المهلهل فى التنكيل ، فالسكوت بعد اليوم لا يزكو بالحر ، ولا يبرره عذر ، يا قوم ! لا أدعوكم للقتال انتقاماً لعزة ديثت بالصـغار ، ودماء جرت كالأنهار ، ودفعاً للمذلة والعار . . . »

ثم نظر إلى الحرث بن همام البكرى وقال له « وأنت يا ابن همام هل أنت مطيعى فيما آمرك به ؟ قال : « ما أنا بتارك رأيك إلى ما هو شر منه » قال : « اعلم أن القوم مستقلون لقومك فى السلم وازدادوا جرأة فى الحرب فلنقاتلهم بالنساء فضلاً عن الرجال »

قال : « وكيف قتال النســاء ؟ » قال : « تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس ، فتعطى كل واحدة منهن اداوة وهراوة ، فاذا صفقت أصحابك فصففهن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فاذا خرج منكم إنسان فى القتال أمرن بسقيه ، وإذا مررن من عدوكم بانسان ضربنه بالهراوة فقتلنه » وفعل الحرث بن همام ما أمر به الحرث بن عباد . وكان هو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال . وحلقوا رؤسهم علامة بينهم وبين النساء . وسمى هذا اليوم يوم « تحلاق اللمم »

* * *

وخرج النساء من دورهن أسرابا محتشدات ، وفى يد كل واحدة اداوة وهراوة ، ووقفت تلقاء هن إحدى بنات الفند الزمانى وصاحت : « يا معشر القوم ! أحب إلينا أن نموت مع الرجال فى ساحة الوغى أحراراً ، من أن نقبع فى دورنا ذلة وانكساراً . فاما عودا مع رجالنا منتصرين ، أوهلا كامع الهالكين ، وسيرى القوم أن المرأة البكرية لا تقل عن الرجل تحمساً للشرف وحفظاً للكرامة ، وحرصاً على الثار . يانساء الحى ! حى على القتال ! حىّ على القتال ! »

ثم برزت أختها ووقفت إلى جوارها وتغنت الفتاتان بأبيات ترهف الشعور ، وتوغر الصدور

وتدافع القوم رجالاً ونساء للقتال : فما كنت ترى إلا أعناقاً تمتد إلى الموت ، وأجساما تتزاحم على الردى ، وصدوراً تهبط وتعلو من فرط الجوى . ثم حمى وطيس الحرب ، واشتد البلاء . واشتبكت الأسنة ، وسالت الدماء ، وظهرت تغلب حمرة تستعر استعاراً ، ونارا تضطرم اضطراماً ، وانقضت على بكر تحصد أعناق رجالها ، وتطيح رقاب أبطالها ، حتى تراجع البكريون وأيقنوا بالفناء ، وظنوا أن لا كاشف لهـــذا البلاء ، وفيما هم يتمثرون فى انكسارهم أقبلت كرمة بنت ضُلع أم مالك بن زيد فارس بكر وغنت :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

مشى القطىّ البارق المسك فى المفارق

والدر فى المخانق إن تقبلوا نعانق

عرس المولىّ طالق والعار منه لاحق

وما أشد ما يفعل الغناء والنساء في نفوس الأبطال . كان لهذه الأنشودة نغم كأنه خيوط انتظمت عليها الصفوف واتحدت في سلكها القلوب ، بل كان النغم قبساً من نور سماوي نفذ إلى القلوب فأضاءها ، وإلى النفوس فأنارها ، وإلى العزائم فقواها ، وإلى الهمم فدعاها . وسار القوم على هداه إلى نصر مبين . تدافعوا على العدو واقتحموا الصفوف واستباحوا المعاقل ، وانكشف الهول فاذا المهاجم يرتد ، وإذا المهزوم يشتد ، وإذا تغلب بين قتيل وأسير وشريد

* * *

وانكشفت الغاشية ، ونظر البكريون فيما بينهم فاذا بالحرث ابن عباد قد خلت منه الصفوف . فجزعوا وفزعوا . وذهبت بهم الظنون كل مذهب . وفيما هم في حيرتهم إذ أقبل فارس ينهب الأرض نهباً . قالوا لعل عنده الخبر اليقين . قال : « كأني بكم تبحثون عن الحرث بن عباد ، سأقص عليكم خبره — « ذهب في أثر بطال من أبطال تغلب وانقض الحرث عليه كما ينقض النسر على الفرخ ، وإذا بطل تغلب بين يديه كالعصفور قد هيض جناحه وقال له الحرث : أتدلني على عدي بن ربيعة المهلهل وأخلي عنك ؟ قال الأسير : أدلك عليه إن وثقت من وعدك . قال الحرث : قد وعدتك . قال الأسير : أنا المهلهل ! . فما وسع الحرث إلا أن يفي بوعده ويخلي الرجل »

صاح القوم صيحة نكراء وهاجوا وماجوا . قالوا : « لقد أسرف الحرث » ، « يخلي المهلهل بعد أسره ؟ » « أليس المهلهل قاتل ولده ؟ »

« قلنا إن الحرث ضعيف الرأي » . « بل الحرث جبان ! » « كانت فرصة ولن تعود » . « ولكن هو الوفاء » . . . .

— ولكن اسمعوا ياقوم . سماع ! سماع ! سماع : لقد بالغ الحرث في مذلة المهلهل ومهانته . فما تركه إلا وقد جز ناصيته كما يجز صوف النعاج »

وفيما هم يتندرون على المهلهل وجز ناصيته ، ويختلفون في تأويل مسلك الحرث ، إذ أقبل الحرث وعلى وجهه آثار مختلفة فيها الأعياء وفيها الزهو وفيها الأسف وفيها الرضى . فأقبل عليه القوم بعضهم يشد يده مهنئاً ، وبعضهم ينحى عليه باللائمة ، وبعضهم يقره على وفائه بالعهد

قال الحرث بن عباد : « وما تركته حتى جززت ناصيته عبرة ونكالاً ، أما تخليته فما كنت لأعدل عنها ، وقد وعدت الرجل وأنا أجهله ، ولو قد نكثت بعهدي للحقت بي سبة لا يمحوها الدهر ولا يغفرها الأهل

لهف نفسي على عدي ، ولم أفـ رف عدياً إذ أمكنتني اليدان !

* * *

قال الراوي : ومنذ ذلك اليوم فارق المهلهل قومه ونزل في مذحج ولم تقم له قائمة ، وظل البكريون من رحيق النصر ينهلون

اليزيدي أحمد الطاهر

تاريخ حياة ألف ليلة وليلة

بحث ضاف مفصل في تاريخ هذا الكتاب وتحليله

تجده منشوراً في كتاب

في أصول الأدب

وقد صدر في هذا الأسبوع في ٢٢٠ صفحة

فاطلبه من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب وثمنه ١٢ قرشاً

الثورة العرابية

بقلم فجري أبو النجا عبود المدرس بالعباسية الثانوية

كتاب يجب أن يقرأه كل مصري

يطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد علي والنهضة بالمتابع والمحلول بالمنجالة وبمكتبة بميدان سوارس بالقاهرة والعباسية بالاسكندرية ومكتبة شنب بالسكة الجديدة بطنطا

الثمن ٥ النسخ الباقية معدودة